بحث فى

عقيدة القضاء والقدر

- القضاء فى القرآن الكريم .
- القدر فى القرآن الكريم .
- تعريف القضاء والقدر .
- حكم الإيمان بالقضاء والقدر .
- الرضا بالقضاء والقدر .
- فوائد الإيمان بالقضاء والقدر .
- هل يجوز الاحتجاج بالقدر .
- الإنسان مخير أم مسير ؟

إعداد

دكتور

محمد ربيع محمد جوهرى

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

بكلية أصول الدين بالقاهرة

القضاء فى القرآن الكريم :

وردت مادة (القضاء فى القرآن فى (٦٣) موضعاً تدور حول عدة معان منها :

١ — جاءت بمعنى الإرادة : قال تعالى :

— (إذا قضى أمراً ، فإنما يقول له : كن فيكون) آل عمران/٤٧.

— (و ما كان لمؤمن ولامؤمنة، إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) الأحزاب /٣٦

٢ — وجاءت بمعنى الحكم قال تعالى :

— (والله يقضى بالحق) غافر/٢٠ .

— (فإذا جاء رسولهم ، قضى بينهم بالقسط) يونس/٤٧ .

— (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليما) النساء/٦٥

٣ — وجاءت بمعنى الخلق : قال تعالى :

— (ففصاهن سبع سموات فى يومين) فصلت/١٢.

— (فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض) سبأ/١٤.

٤ — وجاءت بمعنى الأداء : قال تعالى :

— (فإذا قضيتم الصلاة ، فاذكروا الله) النساء/١٠٣ .

— (فإذا قضيت الصلاة ، فانتشروا فى الأرض) الجمعة /١٠ .

— (فإذا قضيتم مناسككم، فاذكروا الله كذكركم آباءكم)البقرة/٢٠٠ .

٥ — وجاءت بمعنى الإخبار : قال تعالى :

— (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض) الإسراء/٤ .

— (إذ قضينا إلى موسى الأمر) القصص /٤٤ .

٦ — وجاءت بمعنى الإتمام والإكمال : قال تعالى :

— (فلما قضى موسى الأجل)القصص/٢٩.

— (فلما قضى زيد منها وطراً) الأحزاب/٢٧.

— (فاقض ما أنت قاض، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) طه/ ٧٢.

— (ليقضى الله أمراً كان مفعولا) الأنفال /٤٢.

— (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) طه/١١٤ .

٧ — وجاءت بمعنى مات أو قتل : قال تعالى :

— (فوكزه موسى ، فقضى عليه)القصص/١٥.

— (ونادوا يامالك : ليقض علينا ربك) الزخرف/٧٧.

— (ياليتها كانت القاضية) الحاقة/٢٧.

٨ — وجاءت بمعنى التقدير والتحديد : قال تعالى :

— (ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا، وكان أمراً مقضياً) مريم/٢١.

— (وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتما مقضياً)مريم/٧١.

— (هو الذى خلقكم من طين، ثم قضى أجلا،وأجل مسمى عنده)(١) الأنعام/٢

(١) انظر مادة (قضى) فى : مفردات الراغب ص ٤٠٦ و بصائر ذوى التمييز ٤ / ٢٧٦ ولسان العرب ٥ /٣٦٦٥ ومختار الصحاح ص ٥٤٥ وترتيب القاموس ٣//٥٦٨

القدر فى القرآن الكريم :

وردت مادة القدر فى القرآن فى(١٣١) مرضعاً ، تدور حول عدة معان منها :

١ — جاءت بمعنى العظمة والشرف : قال تعالى :

— (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) القدر / ١.

— (وما قدروا الله حق قدره) الأنعام /٩١.

٢ — وجاءت بمعنى التضييق : قال تعالى :

— (وذا النون إذ ذهب مغاضباً،فظن أن لن نقدر عليه) الأنبياء/٨٧.

— (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر)الرعد/٢٦.

— (وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه) الفجر/١٦.

— (ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله) الطلاق/٧.

٣ — وجاء بمعنى العلم . قال تعالى:

— (إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين) الحجر /٦٠.

— (والله يقدر الليل والنهار) المزمل /٢٠.

٤ — وجاءت بمعنى القدرة . قال تعالى :

— (فقدرنا فنعم القادرون) المرسلات/٢٣ .

— (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) البلد/٥ .

— (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) المائدة/٣٤.

٥ — وجاءت بمعنى المقدار : قال تعالى :

— قد جعل الله لكل شيء قدراً) الطلاق/٣.

— (إنا كل شيء خلقناه بقدر) القمر/ ٤٩ .

— (من نطفة خلقه فقدره) عبس / ١٩ .

— (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم) الحجر / ٣١

— (وأنزلنا من السماء ماء بقدر ،فأسكناه فى الأرض)المؤمنون/ ١٨

(— فجعلناه فى قرار مكين إلى قدر معلوم) المرسلات / ٢٣.

٦ — وجاءت بمعنى القضاء والكتابة فى اللوح المحفوظ : قال تعالى :

— (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) الأحزاب/٣٨.

— (فالتقى الماء على أمر قد قدر) القمر / ١٢

— (نحن قدرنا بينكم الموت) الواقعة / ٦

— ثم جئت على قدر يا موسى)(١) طه ٤٠.

تعريف القضاء والقدر :

أولا — عند الأشاعرة :

القضاء : إرادة الله الأشياء فى الأزل على ماهى عليه فيما لا يزال

والقدر : إيجاد الله الأشياء على قدر مخصوص ، ووجه معين ، حسب علمه وإرادته .

---

(١) انظر مادة (قدر) فى : مفردات الراغب ٤ / ٣٩٥ وبصائر ذوى التمييز ٤ / ٦٤٣ ومختار الصحاح ص ٥٢٣ وترتيب القاموس ٣ / ٥٠٣ ولسان العرب ٥ / ٣٥٤٥ ومعترك الأقران للسيوطى ٣ / ١٧٤ والمقاصد ٢ / ١٠٥.

فالقضاء فى الأزل ، والقدر فيما لا يزال .

والفرق بينهما : أن القضاء وجود جميع الموجودات فى اللوح المحفوظ مجتمعة ، والقدر وجودها متفرقة فى الأعيان بعد حصول شرائطها .

والقضاء عندهم من صفات الله الذاتية ، والقدر من صفاته الفعلية : فالقضاء قديم ، والقدر حادث .

ثانياً — عند الماتريدية :

القضاء : إيجاد الله الأشياء مع زيادة الإحكام والإتقان .

والقدر : علم الله أزلا بصفات المخلوقات ، وتحديده كل مخلوق بحده الذى يوجد عليه .

فالقضاء عندهم من صفات الأفعال ، والقدر من صفات الذات(١).

ونميل هنا إلى رأى الماتريدية ، لأن تفسيرهم للقدر بالعلم يناسب ماورد فى القرآن الكريم مما سبق ذكره، وعلى كل حال فالإيمان القضاء والقدر يتضمن عدة أمور :

* الإيمان بعلمه تعالى القديم بما سيكون قبل أن يكون .
* الإيمان بمشيئته العامة ، وإرادته الشاملة لكل الموجودات .
* الإيمان بكتابته كل شىء فى اللوح المحفوظ .
* الإيمان بإيجاده تعالى لكل المخلوقات حسب علمه وإرادته وكتابته.

والقضاء والقدر متلازمان . يقول ابن الأثير : « المراد بالقدر التقدير ،

(١) انظر : شرح البيجورى على الجوهرة ٢/٢١ وشرح الخريدة ص٧٩ والتعريفات ص ١٥٢ والتمهيد للنسفى ص ٢٢٥.

وبالقضاء الخلق ، فالقضاء والقدر متلازمان ، لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء ، فمن رام الفصل بينهما ، فقد رام هدم البناء ونقضه »(١) .

وإذا كان القضاء والقدر متلازمين ، فإن القدر أعم من القضاء . يقول الراغب : « القضاء من الله تعالى أخص من القدر ، لأنه الفصل بين التقدير، فالقدر هو التقدير ، والقضاء هو الفصل والقطع . وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المعد للكيل ، والقضاء بمنزلة الكيل .

وهذا كما قال أبو عبيدة لعمر — رضى الله عنهما — لما أراد الفرار من الطاعون بالشام : أتفر من القضاء ؟ .

قال : أفر من قضاء الله إلى قدر الله .

تنبيها أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله، فإذا قضى فلا مدفع له ، ويشهد لذلك قوله : (وكان أمراً مقضيا) وقوله : (كان على ربك حتماً مقضياً) (وقضى الأمر) أى فصل تنبيها أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه»(٢) .

حكم الإيمان بالقضاء والقدر :

الإيمان بالقضاء والقدر واجب ، لأنه العنصر السادس من عناصر العقيدة الاسلامية التى حددها الرسول — ﷺ — عندما أجاب جبريل عن معنى الإيمان ، ومن الآيات القرآنية التى تشير إلى القضاء والقدر، وكتابته فى اللوح المحفوظ :

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/٧٨.
(٢) المفردات ص ٤٠٦.

* (وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين) يس /١٢.

* (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) الواقعة / ٧٧ — ٧٨.

* (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) البروج / ٢١ — ٢٢.

* (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) التوبة / ٥١.

* (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ، ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) الحديد / ٢٢.

ومن الأحاديث النبوية التى تبين ضرورة الإيمان بالقضاء والقدر :

١ — قال عبادة بن الصامت لابنه : يابنى ، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك . وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله ﷺ يقول :(إن أول ما خلق الله القلم، فقال له : اكتب، قال : رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) يابنى: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:(من مات على غير هذا فليس منى)(١).

٢ — عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :(كل شيء بقدر حتى العجز والكيس)(٢) .

٣ — عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز . وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله ، وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان)(٣) .

---

(١) رواه أبو داود فى السنة ٥/ ٧٦.

(٢) رواه مسلم فى القدر ٤/ ٢٠٤٥ والعجز الضعف ، والكيس النشاط

(٣) المرجع السابق ٤/ ٢٠٥٢ .

٤ — وعن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ — وهو الصادق المصدوق — : إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بكتب أربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد. فوالله الذى لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخلها)(١) .

٥ — وعن أبى العباس عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — قال : كنت خلف النبى ﷺ فقال : ياغلام ، أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف)(٢) .

---

(١) رواه الشيخان — اللؤلؤ والمرجان ٢/ ٣٤٩ .

(٢) رواه الترمذى فى صفة القيامة وقال: حسن صحيح ٤/ ٦٦٧.

الرضا بالقضاء والقدر :

إذا كان المسلم مأموراً بالإيمان بقضاء الله وقدره ، فهل يستلزم ذلك الرضا بكل ما قضى الله وقدر ، ومنه الكفر والمعاصى والآثام والشرور ؟

١ — من العلماء من يرى أن المؤمن ليس مطالباً بذلك لأنه لم يرد نص بذلك ، يقول (ابن تيمية) رحمه الله : « ليس فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسول الله آية ولا حديث يأمر العباد أن يرضوا بكل مقضى مقدر من أفعال العباد حسنها وسيئها ، فهذا أصل يجب أن يعتنى به ، ولكن على الناس أن يرضوا بما أمر الله به ، فليس لأحد أن يسخط ما أمر الله به ، قال تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليما) وقال تعالى : (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ، وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم ، وقال : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون) وذكر الرسول هنا يبين أن الإيتاء هو الإيتاء الدينى الشرعى ، لا الكونى القدرى .

وقال ﷺ فى الحديث الصحيح : (ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبياً) .

وينبغى للإنسان أن يرضى بما يقدره الله عليه من المصائب التى ليست ذنوباً ، مثل أن يبتليه بفقر أو مرض أو ذل أو أذى الخلق له ؛ فإن الصبر على المصائب واجب ، وأما الرضا بها فهو مشروع ، لكن هل هو واجب أو مستحب ؟ على قولين لأصحاب أحمد وغيرهم ، أصحهما أنه مستحب ليس بواجب .

ومن المعلوم أن أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله ،

وقد أمرنا الله أن نأمر بالمعروف ، ونحبه ، ونرضاه ، ونحب أهله ، وننهى عن المنكر ، ونبغضه ، ونسخطه ، ونبغض أهله ، ونجاهدهم بأيدينا وألسنتنا ، وقلوبنا ، فكيف نتوهم أنه ليس فى المخلوقات ما نبغضه ونكرهه »(١) .

٢ — ويذكر (الباقلانى) رحمه الله جواباً آخر فيقول : « إنا نرضى بقضاء الله فى الجملة على كل حال .

فإن قالوا : أفترضون الكفر والمعاصى التى هى من قضاء الله ؟

قيل لهم : نحن نطلق الرضا بالقضاء فى الجملة ، ولا نطلقه فى التفصيل لموضع الإبهام ، كما يقول المسلمون كافة على الجملة : الأشياء لله ، ولا يقولون على التفصيل : الولد لله ، والصاحبة والزوجة والشريك له ، وكما نقول : الخلق يفنون ويبيدون ويبطلون ، ولا نقول : حجج الله تفنى وتبطل وتبيد فى نظائر هذا من القول الذى يطلق من وجه ، ويمنع من وجه »(٢) .

٣ — ويروى (ابن القيم) رحمه الله أنه يجب الرضا بالقضاء الدينى ، أما القضاء الكونى فهو نوعان : نوع يجب الرضا به ، ونوع لا يجب الرضا به .

يقول ابن القيم : « الحكم والقضاء نوعان : دينى وكونى : فالدينى يجب الرضا به ، وهو من لوازم الإسلام ، والكونى منه ما يجب الرضا به ، كالنعم التى يجب شكرها ، ومن تمام شكرها الرضا بها ، ومنه ما لا يجوز الرضا به ، كالمعايب والذنوب التى يسخطها الله ، وإن كانت بقضائه وقدره ، ومنه ما يستحب الرضا به كالمصائب ، وفى وجوبه قولان .

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/١٩٠ .

(٢) التمهيد ص ٣٢٧ .

هذا كله فى الرضا بالقضاء الذى هو المقضى ، وأما القضاء الذى هو وصفه سبحانه وفعله كعلمه وكتابه وتقديره ومشيئته ، فالرضا به من تمام الرضا بالله رباً وإلها ومالكا ومدبرا ، فبهذا التفصيل يتبين الصواب ، ويزول اللبس فى هذه المسألة العظيمة ، (١) .

٤ — ويذهب (سعد الدين التفتازانى) إلى أن الواجب هو الرضا بالقضاء لا بالمقضى ، وبالقدر لا بالمقدر ، يقول رحمه الله : « والرضا إنما يجب بالقضاء دون المقضى » (٢) .

لكن ألا ترى أنه لا معنى للرضا بالصفة إلا الرضا بآثارها .

هذا إذا نظرنا إلى صدور الفعل من الله عز وجل .

وتوضيح ذلك أن القضاء له جهتان .

الجهة الأولى : كونه فعل الله ، ومنسوب إليه ، وهو من هذه الجهة كله خير وعدل وحكمة ، فإذا نظرنا إلى هذه الجهة ، فإننا نرضى بالقضاء كله .

الجهة الثانية : كونه فعل العبد اختياراً واكتسابا ، وهو من هذه الجهة ينقسم إلى قسمين : قسم نرضى به ، وقسم لا نرضى به .

فكفر الكفار ، ومعصية العصاة ، إذا نظرنا إلى ذلك من حيث كونه بقضاء الله وقدره ، ولا بد من وجوده فى العالم ، لأنه من آثار الأسماء الحسنى ، ومستلزمات الصفات العليا ، فإننا نرضى به .

وإذا نظرنا إلى جهة صدور الكفر والمعصية من العباد ، فنحن لا نرضى به ، وهذا ما نراه فى مسألة الرضا بقضاء الله وقدره ، والله أعلم .

---

(١) شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص٢٧٨ ط الحسينية .

(٢) شرح المقاصد ٢/١٠٥ .

فوائد الإيمان بالقضاء والقدر :

١ — لقد كان إيمان المسلمين بعقيدة القضاء والقدر سبباً فى تقدمهم فى جميع مجالات الحياة ، حتى سادوا الدنيا كلها فى مدة وجيزة أشبه ما تكون بالأحلام ، ويوم أن ضعف الإيمان بعقيدة القضاء والقدر تأخر المسلمون ، وأصبح حالهم على ما نراه الآن .

هذه حقيقة لا بد من الإلمام بها ، والانتباه إليها ، والوقوف لدراستها .

إن إيمان المسلم بأن ماشاء الله كان ، وما قدر فعل ، وإيمانه بتحديد الآجال ، وضمان الأرزاق ، وأنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها إن إيمانه بذلك دفعه إلى الإقدام والشجاعة ، والجرأة والبسالة ، فكان المسلمون رهبانا فى الليل ، فرسانا بالنهار ، لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها ! !

قيل لقتيبة بن مسلم : إنك توغلت فى أرض الترك ، والأيام على جناح طائر ، فقال : بشقى بالله تقدمت ، واذا انتهت المدة ، لم تنفع العدة ! !

إن إيمان خالد بن الوليد بالقضاء والقدر هو الذى جعله يحقق هذه البطولات العظيمة ، وهذه الانتصارات الضخمة فى مدة قصيرة ، تشبه المعجزات ، فلا مجال للخوف أو الجبن ، أو الفزع أو الحزن فقول الحق : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) كان شعاره .

ورغم هذه الجسارة الفريدة من ابن الوليد لم يمت وسط المعارك ، إنما مات على فراشه وهو يردد قولته المشهورة : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو رمية بسهم ، أو طعنة برمح ، وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى ، فلا نامت أعين الجبناء » (١) ! !

---

(١) السيرة النبوية للشيخ عبد المقصود نصار ، والشيخ الطيب النجار ٤/٧٠ .

٢ — وكان لعقيـــدة القضاء والقدر الأثر الواضح فى نبوغ علماء المسلمين فى فروع العلم المختلفة ، فماذا يمنع المسلم من أن يغامر ويلاحظ ، وأن يجرب ويختبر ، ويقضى الساعات الطويلة فى المعامل ، ووسط الأجهزة والمخابر ، ليكتشف سنن الله فى كونه بعزيمة قوية ، لا تعرف التردد ، لإيمانه بأن أمر المؤمن كله خير ، كما قال ﷺ : (عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له) (١) .

وكانت نتيجة ذلك أن ظهر أمثال : (جابر بن حيان) فى مجال الكيمياء ، فهو أول من استحضر حامض الكبريتيك ، واكتشف حامض النتريك ، والصود الكاوية ، واستخدم ثانى أوكسيد المنجنيز فى صناعة الزجاج .

وأمثال (الحسن بن الهيثم) أستاذ البصريات الذى ألف فى الرياضة خمسة وعشرين كتابا ، وفى الطبيعة أربعة وأربعين كتابا .

وأمثال (البيرونى) الذى يقـول عنـه المستشرق الألمانى سخاو : « البيرونى أعظم عقلية عرفها التاريخ ، فقد كان أديبا متعمقاً فى الرياضيات ، والفلك ، والتاريخ » .

وأمثال : ابن سينا فى الطب ، وابن البيطار فى الصيدلة ، والخازن فى الضوء ، واليوزجانى وابن يونس وعباس بن فرناس فى الفلك ، والخوارزمى وابن فضلان والمسعودى والمقدسى فى الجغرافيا والطيران .

وأمثال : موسى بن نصير أول من اخترع الدبابة ، وابن خلدون المؤرخ الذى أسس علم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد .

---

(١) رواه مسلم فى الزهد ٤/٢٢٩٥ .

٣ — وكانت هذه العقيدة سبباً فى الهدوء النفسى ، والطمأنينة القلبية ، فلم يظهر ما يسمى بالعقد النفسية ، أو الأمراض العصبية ، أو حوادث الانتحار ، وقارن ذلك بما تقرأه عن الدول الأوربية والأمريكية التى تدعى الحضارة والعصرية .

إن المسلم بإيمانه بهذه العقيدة تراه متفائلا دائماً ، راضيا بما قسم ، لا يعرف التشاؤم سبيلا إلى قلبه ، ولا اليأس طريقا إلى نفسه ، ولا يملك التحسر على ما فاته من أمور الدنيا عليه كيانه ، فيشل حركته ، ويميت نشاطه ، لأنه يضع نصب عينيه قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا ، وهو شر لكم ، والله يعلم ، وأنتم لا تعلمون) .

[سورة البقرة / ٢١٦]

٤ — والإيمان بعقيدة القضاء والقدر يدفع المسلم لأن يكون كريما سخيا جواداً ودوداً ، ولهذا أثره فى تكافل المجتمع وتماسك كيانه .

هل يجوز الاحتجاج بالقدر :

الاحتجاج بالقدر منه ماهو جائز شرعا . ومنه ما هو ممنوع :

أولا — الاحتجاج الجائز : يجوز الاحتجاج بالقدر فى الحالات التى لا يكون فيها إبطال للشرع ، ولا معارضة له ، وذلك بأن يكون الاحتجاج بالقدر بعد وقوع الذنب ، وبعد التوبة منه ، والندم على فعله ، والعزم على عدم العودة إليه . فيكون فى ذكر القدر عند ذا اعتراف به ، وتثبيت للإيمان به ، فيكون من باب الإخبار بالواقع فقط .

ومن هذا النوع ما روى فى الحديث الصحيح : (عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : حاج آدم موسى فقال : أنت الذى أخرجت

الناس من الجنة وأشقيتهم ؟ قال فقال آدم لموسى : أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومونى على أمر كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى؟أوقدره علىّ قبل أن يخلقنى ؟

قال رسول الله ﷺ :(فحج آدم موسى)(١) .

هنا أقر سيدنا محمد احتجاج آدم بالقدر ، وحكم له بحاجة موسى — عليهم الصلاة والسلام — لأن احتجاج آدم بالقدر كان بعد وقوع المعصية وبعد التوبة منها .

قال تعالى: « وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه ، فتاب عليه وهدى، [سورة طه ١٢١ — ١٢٢]

وليس فى احتجاج سيدنا آدم بالقدر معارضة للشرع .

قال ابن القيم : « فإن قيل : فقد احتج علىّ بالقدر فى ترك قيام الليل ، وأقره النبى — ﷺ — كما فى الصحيح عن على أن رسول الله — ﷺ — طرقه وفاطمة ليلا فقال لهم : ألا تصلون ؟ قال فقلت: يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله ، فإن شاء أن يبعثها بعثها. فانصرف رسول الله — ﷺ — حين قلت له ذلك ، ولم يرجع إلىّ شيئا ، ثم سمعته — وهو مدبر — يضرب فخذه ، وهو يقول : (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) .

ويجيب ابن القيم على هذا الاعتراض بقوله :«على لم يحتج بالقدر على ترك واجب ، ولا فعل محرم . إنما قال: إن نفسه ونفس فاطمة بيد الله، فإذا شاء أن يوقظهما ، ويبعث أنفسهما بعثهما ، وهذا موافق لقول النبى ﷺ ليلة ناموا فى الوادى : إن الله قبض أرواحنا حيث شاء ، وردها حيث

(١) جامع الأصول ١٠ /١٢٤.

شاء ،وهذا احتجاج صحيح ،صاحبه يعذر فيه ،فالنائم غير مفرط ،واحتجاج غير المفرط بالقدر صحيح .

وقد أرشد النبى — ﷺ — إلى الاحتجاج بالقدر فى الموضع الذى ينفع الاحتجاج به .

فروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان)(١) .

ثانيا : الاحتجاج الممنوع :

وهو الاحتجاج بالقدر فى حال ارتكاب الذنب، والإصرار عليه، أوفى حال العزم على فعله فى المستقبل ، أوفى حال ترك الأمر الواجب ، أوالعزم على تركه .

ومن هذا النوع احتجاج المشركين والكفار بالقدر تبريرا لشركهم وكفرهم ، وقد حكى القرآن عنهم ذلك واستنكر صنيعهم فقال :

● (سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ،ولا آباؤنا، ولا حرمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون) . [سورة الأنعام/١٤٨]

● (وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن

(١) شفاء العليل ص ١٨.

ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين من قبلهم. فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) [سورة النحل آية ٣٥]

● (وإذا قيل لهم : أنفقوا مما رزقكم الله . قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين) [يس /٤٧]

● (وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) [الزخرف /٢٠]

فأنكر الله عليهم فى هذه الآيات احتجاجهم بالقدر ، وزعمهم أن مشيئة الله للشرك دليل على رضاه منهم ، فعارضوا الشرع بذكر القضاء والقدر ، ولم يذكروا القدر على جهة الإقرار به والإذعان له ، إنما ذكروه على جهة المعارضة .

وقد احتج سارق على عمر رضى الله عنه بالقضاء والقدر ، وقال : أنا سرقت بقضاء الله وقدره ، فقال عمر : وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره .

الإنسان مخير أم مسير :

كان رسول الله ﷺ يكره المراء فى الدين ، والجدال بين المسلمين ، خاصة فى المسائل العويصة التى تضيع الوقت ، وتبدد الجهد ، وتفرق الجمع ، ولا يتسنى للعقل البشرى أن يقول فيها القول الفصل ، والرأى الذى لا ينقضه رأى ؛ لأنها فوق مستواه وأعلى من مداه .

ومن هذه المسائل مسألة القدر ، أو الإنسان مخير أم مسير ؟ مجبر أم مختار ؟ وقد جاءت أحاديثه الشريفة تبين ذلك :

● عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون فى القدر ، فخرج مغضبا حتى وقف عليهم

فقال : (يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضا ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به)(١) .

وعن أبى هريرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى احمر وجهه ، حتى كأنما فقىء فى وجنتيه الرمان فقال : (أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم ، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه)(٢) .

● وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)(٣) .

● وقال عليه الصلاة والسلام : (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم قرأ : (ما ضربوه لك إلا جدلا ، بل هم قوم خصمون)(٤) .

● وقال عليه الصلاة والسلام : (من ترك المراء وهو مبطل ، بنى الله له بيتا فى ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق ، بنى الله له بيتا فى أعلى الجنة)(٥) .

● وعن عبد الله قال : قال رسول الله — ﷺ — (هلك المتنطعون) قالها ثلاثا(٦) .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ٢/١٧٨ ، ١٩٦ وابن ماجه فى المقدمة ١/٣٣ .

(٢) رواه الترمذى فى القدر ٤/٤٤٣ .

(٣) رواه مسلم فى العلم ٤/٢٠٥٤ والألد : شديد الخصومة ، والخصم : الحاذق بالخصومة فى الباطل .

(٤) رواه الترمذى وابن ماجه — تخريج العراقى لأحاديث الإحياء ١/٦٩ .

(٥) رواه الترمذى وابن ماجة أيضا — المرجع السابق ١/٧٩

(٦) رواه مسلم فى العلم ٤/٢٠٥٥ والمتنطع : المتعمق المغالى المجاوز للحد .

وعن عائشة قالت : تلا رسول الله ﷺ : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات، هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون فى العلم يقولون آمنا كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب) قالت : قال رسول الله ﷺ : (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم)(١) .

هكذا كانت توجيهات سيدنا رسول الله — ﷺ — وذلك لأن هذه المسألة من المتشابه الذى يحير العقول .

وقد تحيرت العقول فعلا ، فرأينا كثرة المذاهب ، وتعدد الآراء ، وتنوع الاتجاهات ، واختلاف الأدلة ، وهى فى جملتها تكاد ترجع إلى رأيين :

رأى الجبريين ، ورأى الاختياريين :

الجبريون : يرون أن الإنسان مجبر فى أفعاله ، لا إرادة له، ولا اختيار ولا قدرة ، إنه أشبه بالريشة المعلقة فى الهواء ، يحركها الهواء كيف شاء، والخالق لكل شىء هو الله ، والمريد لكل شىء هو الله .

واستدلوا على رأيهم بالعقل قالوا : لو كان للإنسان قدرة واختيار فى خلق أفعاله لكان شريكا لله فى الخلق ، ولكانت له أفعال لا تخضع لإرادة الله وقدرته ، وهذا مستحيل .

واستعانوا ببعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى : (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل) [الأنعام ١٠٢]

وقوله سبحانه : (من يشأ الله يضلله ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) [الأنعام / ٣٩]

(١) المرجع السابق ٤/٢٠٥٣

والاختياريون :

يرون أن الإنسان مختار فى أفعاله الاختيارية بخلاف الاضطرارية التى لادخل له فيها ، وله القدرة على تنفيذ ما اختاره وأراده .

واستدلوا على رأيهم بالعقل فقالوا : لو لم يكن العبد مختاراً ، وله قدرة على الفعل والترك لكان تكليفه بالشرع عبثاً من الله ، والله منزه عن العبث، ولما استحق الإنسان المدح والذم على أفعاله ، والثواب أو العقاب عليها .

واستعانوا ببعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى : فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . [الكهف ٢٩]

وقوله سبحانه : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) . [الزلزلة ٧ — ٨]

وقوله سبحانه : (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) [المدثر ٣٧]

وتأمل ما يسجله أستاذنا الشيخ صالح شرف الذى أمضى قرابة قرن من الزمان مع علم الكلام بعد أن انتهى من عرضه لهذا الموضوع قال : « فأنت ترى من كل ما قدمناه من الأدلة أنها متعارضة ، وأن العقل يقف حائراً : أى المذهبين يختار ؟ وأى طريق يسلك ؟ مادام أن العبد باتفاق الرأيين لا يفعل غير معلوم الله .

غير أن الباحث فى هذه المسألة يمكنه أن يحكم بأن مذهب الاعتزال أعطى حرية للعبد أوسع ، حيث كان له تصرف فى فعله بإيجاده ، بخلاف مذهب أهل السنة من تقييد العبد بأنه هو وقدرته وعمله خلق الله تعالى .

كذلك نرى أن مذهب الاعتزال قريب ومنسجم مع التكاليف .

كما أن مذهب أهل السنة أليق بقدسية الخالق ، وعظمته ، وتفرده بالإيجاد ، وباستحقاق العبودية لكونه خالقاً .

ولو قارنت بين الأدلة النقلية لكل من الطرفين ، لوجدتها متساوية ، فلا يمكنك أن ترجح بها مذهباً على مذهب » (١) .

وعرض المشكلة بهذه الصورة لا يمكن أن يوصل إلى الرأى الذى يطمئن إليه القلب ، ويقنع به الفعل .

واستمع إلى مايقوله أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله .

« لقد شغلت مسألة القدر ، أو الجبر والاختيار ، أو أفعال العباد عقول الإنسانية منذ أن كان الدين ، أى منذ ابتداء تاريخ الإنسان على ظهر الكرة الأرضية .

وإذا أثيرت مسألة القدر فى أى وسط كان — مهما كان قليل العدد — فإنها تقسمه إلى قسمين . يقول أحدهما بالجبر ، والآخر يقول بالاختيار .

لقد أثارها اليهود فى دينهم ، ففرقت بينهم ، وقال بعضهم بالجبر ، وقال الآخرون بالاختيار .

وأثيرت فى الديانة النصرانية على مجرى التاريخ ، فكان النزاع وكان الجدل ، وكان التحيز لرأى والتعصب له وانقسم رجال المسيحية إلى فريقين يختصمان .

وأراد رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أن يتلافى انشقاق الأمة بسبب إثارة هذه المشكلة ، فكان ينهى دائماً عن إثارتها ، وعن الجدال فيها ..

---

(١) مذكرات التوحيد للسنة الرابعة ص ١٢ .

ومضى رسول الله ﷺ راضياً مرضياً ، وهو لا يسمح حتى النفس الأخير من حياته الشريفة بأن تثار هذه المسألة .

ولم تثر هذه المسألة فى عهد سيدنا أبى بكر لانشغال المسلمين بتوطيد دعائم الأمة الإسلامية منصرفين بذلك عن العبث فى دين الله .

وكانت درة سيدنا عمر كفيلة بردكل من تحدثه نفسه بإثارة هذه المشكلة إلى جادة الصواب .

ومسألة القدر إذن من المتشابه ، إنها من أهم مسائل المتشابه .

وهى فضلا عن ذلك عصية على الحل ، إنها ليست قابلة للحل ، وهى ليست قابلة للحل سواء أثيرت فى الشرق أو الغرب ، وسواء أثيرت فى القديم أو فى الحديث ، أو أثيرت فى البادية أو فى الحضر ، إنها مفرقة بين الباحثين فيها ، ومهما طال الجدل فسوف لاينتهون إلى نتيجة ، ومن أجل ذلك كانت الروح الإسلامية العامة تحرم الخوض فيها .

ومع ذلك فقد بدأت هـــذه المشكلة تتسلل شيئاً فشيئاً إلى المجتمع الإسلامى ، حتى لقد احتلت يوماً ما مركز الصدارة فى الفكر الإسلامى النظرى .

ولقد مهدت السياسة أولا لهذا التسلل ، وكانت السياسة أول عامل من عوامل إفساد التفكير النظرى الدينى فى المجتمع الإسلامى السليم »(١) .

هكذا وضح لنا أن هذه المسألة من الناحية العقلية :

عصية على الحل .

مضيعة للوقت .

---

(١) الإسلام والعقل ص ٧٨ — ٨٩

مبددة للجهد .

مفرقة للجمع .

أما الآيات القرآنية ، فيجب أن تفهم على ضوء أن الإنسان يحيا بين جبر واختيار ، وأن الخالق قد منحه إرادة بها كان التكليف ، وعليها يكون الجزاء ، ولا يعنى أن الله يعين الإنسان على اختياره عدم مسئوليته عما يفعل

ويحدث الخطأ فى فهم الآيات القرآنية عندما تؤخذ آية ، وتغفل أخرى ، أو يستدل بجزء من آية ، ولا يلتفت إلى باقيها ، ومن المعلوم أن القرآن يفسر بعضه بعضاً .

فإذا أردنا أن نفهم مثلا قوله تعالى : (من يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل) [الزمر ٣٦–٣٧]

فلابد أن يكون فهمنا لهذه الآية فى ضوء آيات أخرى فى الموضوع:

فنفهم قوله تعالى : (من يضلل الله فماله من هاد) فى ضوء قوله تعالى :

- (ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء) [إبراهيم ٢٧]
- (كذلك يضل الله من هو مسرف من تاب) [غافر ٧٤]
- (كذلك يضل الله الكافرين) [غافر ٧٤]

ونفهم قوله تعالى : (ومن يهد الله فما من مضل) فى ضوء قوله :

- (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) [محمد ١٧]
- (إن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، يهديهم ربهم بإيمانهم) [يونس ٩]
- (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) [مريم ٧٦]

وإذ أردنا أن نفهم قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء) [الأنعام ١٢٥]

فعلينا أن ننتبه إلى نهاية هذه الآية وهى قوله تعالى : (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) فعدم إيمانهم ، ورفضهم الإسلام باختيارهم كان السبب فى جعل الرجس عليهم ، فكان الضيق والحرج فى الصدور نتيجة لذلك .

بهذا القدر يجب أن تبحث مسألة الجبر والاختيار ، أو الإنسان مخير أم مسير ، مجبر أم مختار ، ولا داعى للتنطع والتقعر طالما أن هذه المسألة عصية على الحل العقلى المجرد .

ولذلك لما جاء رجل إلى سيدنا على بن أبى طالب يقول : ياأمير المؤمنين أخبرنى عن القدر . قال : طريق دقيق لاتمش فيه . قال : ياأمير المؤمنين أخبرنى عن القدر . قال : بحر عميق لاتخض فيه . قال : ياأمير المؤمنين أخبرنى عن القدر قال : سر خفى لله لا تفشه .

ويقول الإمام على رضى الله عنه : « إن الله أمر تخييراً ونهى تحذيراً ، وكلف تيسيراً ، ولم يعص مغلوباً ، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً ، ولم يخلق السموات والأرض باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار » (١)

ولقد قال الإمام أبو حنيفة رضى الله تبارك وتعالى عنه فى القدر : « هذه مسألة قد استعصت على الناس ، فأنى يطيقونها ، هذه مسألة مقفلة ، قد ضل مفتاحها » (٢)

ويقول سيدنا جعفر الصادق رحمه الله : « إن الله تعالى أراد بنا شيئاً ، وأراد مناشيئاً ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا ، أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا » (٣)

---

(١) العقيدة الإسلامية للشيخ محمد أبى زهرة ص ٥٥

(٢) المرجع السابق

(٣) الملل والنحل للشهرستانى ١/١٤٧

ويقول : « الناظر فى القدر كالناظر فى عين الشمس ، كلما ازداد نظراً ازداد حيرة

وعن وهب بن منبه أنه قال : « نظرت فى القدر فتحيرت ثم نظرت فيه فتحيرت ، ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفهم عنه ، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم به » .

ونختتم هذا البحث بحديث لسيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول فيه : (إذ ذكر القدر فأمسكوا)(١)

هذا التوجيه النبوى الشريف هو الفصل — فيما نرى — فى مسالة (الإنسان مخير أومسير) والله أعلم .

دكتور / محمد ربيع محمد جوهرى
الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين بالقاهرة

---

(١) رواه الطبرانى عن عبد الله بن مسعود ، وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ ورمز له السيوطى بالحسن — السراج المنير شرح الجامع الصغير ١/١٢٠